

سكرات الموت الأصفى

عبد الرحيم بن المبارك



سكرات الموت الأصغر

مكتبة سكرات للنشر الإلكتروني

2018

إهداء

إليّك..

فلولاك ما خط قلمي ، ولا تحركه فكري ،

ولا نبض قلبي بالآمال والآلام.

الأمل ، كل الأمل ، بعض الأمل ، ما به نحيا فإن انعدم انعدمت الحياة
 ، وما أجمل ما جاد به فكر المنفلوطي رحمه الله { إنما نحن أحياء
 بالأماني ، ولو كانت باطلة. }

لا يمكن تصور حياة بدون أمل ، ولا يمكن تصور أن الإنسان لا يحيى
 إلا في دنياه المادية ، وإلا لا فرق بينه وبين الكائنات الأخرى ، بل جسم
 وروح لا يعلم حقيقتها إلا خالقها ، فلكل حياته التي نراها ، ولكل حياته
 الخفية ، التي لا يعرفها إلا صاحبها .

وكلنا نستيقظ وننام ، ولنا في ذلك حياة ، حلم ويقظة ، وسكرة بينهما
 يهيم الإنسان معها فيما يريد أن يحقق ، وفيما صعب تحقيقه ، وفيما
 تحقق ويرضي ، وفيما تحقق ولا يرضي .

هو أنت في عالمك ..

هو أنت مع من تريد...

السكرة الأولى

في ليلة الخسوف ، جلست والقمر بين أحضان الهوى السرمدي ، وظلما
 الليل المعتم ، بلا حراك ولا كلام مسموع ، العين في العين تتلقيان رسائل لا
 يكاد يحصيها العاد ، أو يفهمها الجاهل ، نظرات تساوي أعمارا ، أرى وأبصر
 تلك النظرة الحانية والوجه الغر الصبوح ، استحوذت على تفكيري
 وسلبته ، الضجيج بداخلي والصراع بين المنطق واللامنطق ، بين العقل
 المتزن ، والقلب العاطفي المتسرع ، نبضان يحيرانني وأنا كالراكب على
 القارب بلا شرع وبلا مجداف ، وحتى الريح ساكنة متواطئة ترمق من
 بعيد هادئة الأعصاب ، بدأت التأويلات تتضارب في فكري دون أن تتعاقب ،
 وكنت حينها أشعر كصبي ينتظر أمه لتدغدغ وجنتيه ، أو تلمس بيدها
 السحرية ذقنه لتشرق منه ضحكة يبدو معه سنه الأوحده ، وكأنني في
 العدم السفلي أنتظر الإذن لتنشق الأرض وأولد من بطنها

كنت أتأمل ذاتها وهي ساكنة ، كأن أمامي كائنا من عالم آخر ، لا أفهم اللغة التي تتحدث بها ، ولا أدر من أي الأجناس هي ، كل ما تأكدت منه أنها ليست من بني البشر ، فجمالها لم تشاهد عيناى مثله ، ودلالها ورقتها يحكيان بأعذب الألحان بداية فيلم لم تشهد البشرية مثله ، خُطَّتْ ونسجت حكاياه بماء جف منذ سنين من الأديم ، وحركاتها كعصفورة تطير منومة الجوارح قبل العصافير .

سكَّتْ نفسي لبرهة ، واستجمعت قواى المهالكة ، حاولت البدء بالكلام ولكن دون جدوى ، فوجدتني راجعا إلى صمتي الصاخب ، لم أجد ولو كلمة واحدة في قاموسي ، كصبي يرى أمه ولم يعلم بعد كيف يناديها . شرارة النار التي اشتعلت قد بلغت حنجرتي ، فلم أصبر على حرها الشديد ، قلت بصوت خافت وعيني ناظرة للقمر ، ما أجمله ولو أن الخسوف غطاه ، سمعت حروفي الخجولة وتلقفتها بإحساس ناعم ، وقالت

نعم ، كان لابد من ذلك ، كثير من الناس يغفل عن مشاهدة الجمال ،
والكثير منهم الآن يراه لما توارى ، مغبون من ينعدم حس الجمال في روحه ،
عدلت نظري عن القمر نحوها ، فوجدت عينيها لا زالت تنظر نحوي ،
أيقظت بداخلي إنسانا لزم حياة الكهوف منذ سنين ، أيقظته من سبات
عميق بكلمات موزونة عذبة ، خرجت من ثغرها كزهرة داعبت ورقاتها
قطرات غيث فياضة ، وكأنني كنت قبل ذاك أطرش وأعمى ، أجبتهما كنت
أرى القمر قبل أن يبدو للناس ، أعلم متى سيتجلى ومتى سيكتمل ومتى
يغيب ، قالت وأنا كنت أراك لما تراه ، وأرى شوقك الدافئ له ، هو أيضا كان
يراك ، ويشتاق كذلك للقياء ، ينتظر رحلتك للوصول له ، ينتظر
تضحياتك في سبيله لينادي في الأكوان غير مبال روعي له ، سئم الحياة
ومل ، ولو تظن أنه سعيد بمكانه وتهافت النجوم الدائرة في فلكه فأنت
مخطئ ، الكل يرجوه لجماله الأخاذ ، ونوره الفتان ، ولا أحد منهم أحس به

وبجوهره ،

اهتز قلبي طربا بما سمعت ، ودارت بي الأرض دورة سامية ، طاف الفؤاد
حول كعبة العشاق ، ورأيت هناك ليلي وعبلة ، عرائس على هواجج النوق ،
وقيس وعنتر يسوقان مواكب العاشقين وأصواتهم دوت في الأرجاء ، يزفون
عروسا جديدة ويضعونها في مكان علوي ، التفتوا جميعا نحوي وكأني بهم
ينتظرون فراغي من الطواف ، ولما انتهيت حملوني على أكتافهم ، حاملين
رسائل الترحيب .

لم أحس أين أنا حتى لمستني يد خفيفة رقيقة ، حرارتها بلغت أعلى رأسي ،
نظرت مشدوها فإذا ابتسامتها تنثر الدرر البراقة على سطح قبو خرب
مظلم ، استيقظت من غفوتي وقلت ، أعنيت ما قلت ، أجابت بدون تردد
نعم ، أمسكت يدها بشدة وقلت اعتقدت العكس ، حسبت أنك أبعد شيء
يمكن الوصول إليه ، النجوم حولك ولست نجما ، عيوني كانت لا ترى

سواك ، كنت أناجيك وتنازعي دواخلي ، تحدثني وتعاتبني ، الكل فيّ يلومني
ولكن كنت كالمكتوف المصلوب على الجدار تحيط بي القضبان ، لا
السجان اقترب ، ولا القاضي حن ، ولا الشمس أطلت ، أحسست بالخيانة
العظمى من العالم بأسره

استوقفتني بصوت مرهف ، وأنا كنت كالعصفورة تنتظر طائرها في العش
المعلق أعلى الشجرة ، تحوم حولها الجوارح تنتظر الوقت لتنقض على
لحمي الهش ، فتنهشه بمنقارها الوحشي ، جذبهم ريشي الناعم ، ولحيماتي
الرطبة ، تفر من جارح فتلقفها مصيدة الصياد لتضعها سجيناً القفص
الحديدي ، يسمع الصبية أنيني تغريدات تطرب آذانهم ، ويروا سواد عيني
من قلة النوم جمالا يتغنون به

إن الحال الذي يراك فيه الآخر ليس معيار الفرح أو الحزن ، هي صورة
مقلوبة في كثير من الأحيان ، فالضحك ليس تعبيراً عن الفرح ، والبكاء

ليس تعبيراً عن الحزن ، والنبه هو من يقرأ ما بين النبض والنبض ، ما بين الزفرة والشهقة ، ما بين بياض العين وأمها ، خفضت بعد هذا الكلام رأسها كأن الجبال قد ألقىت على عاتقها ، وأخذت تدلك أصابعها لتخفف من ضغط ما تحس به ، وأنا من أنا نسيت نفسي وتهت في أعماق بحار زرقاء ، منتعشا بلا تنفس ، حيا بلا قلب ، عاقلا بلا عقل ، مسكت يدها مخففا عنها ، وكنا اثنين آنذاك لا ثالث لهما ، وانقضى زمن الخسوف ، وبقيت لحظاته الماتعة المؤنسة ، كشفت عن كل ما تكتم عليه الليل المستور ، عشنا حياة روحية سامية ، في لحظات العمر الأبدى ، نقشت في كتاب العشاق سطوراً لن تنمحي ، والقمر والخسوف أعز شاهدين .

تبه

بعد ذلك اللقاء الجميل ، هرولت هرولة الملبي ، صممت آذاني وأغمضت عيني ، وما في الفكر والمخيلة إلا ما حدث هناك ، في تلك الأرض الطاهرة التي لا يدنسها شيء ، التي تحيط بأركانها شهب ترجم كل دنس ، تجعل تأشيرة المرور صفاء القلب وطيب الكلام وحسنه ، هناك حيث اللامكان واللازمان ، هناك حيث ترفع الماديات اللعينة وتسمو الأرواح ، لتحوم حول فلك واحد ، المحبة ولا شيء غيرها ، الإنسان وقيمه المترفعة عن كل الأخلاق الذميمة والنوايا الخبيثة .

لم أرد أن أسمع ولا أرى ، كنت كالهارب من السجن المنبوذ ، وكأن زناتي تتبعني ، تفتح قضبانها لتلتمني ، ولا أريد الرجوع إليها ، قلت الآن نلت حرיתי ، رجوت أنذاك ألا تفارقني اللحظة السامية ، التي سبحت فيها إلى أعماق ذاتي الراقدة منذ سنين ،

غبي من يظن أن الكلمات لا تأثير لها على النفوس والأحاسيس بل حتى على التصرفات ، الكلام ترجمان القلب كما قيل كل إناء بما فيه ينضح ، وكل إناء وصفاءه ونقاؤه ، أما ما سمعت أنا فكان من طينة أخرى ، الإناء در ، والثغر در ، والفكر در .

بعد ما تمكنت دررها مني ووجدت في لب قلبي مكانا ، كنت كالمخدر الذي لم يحس متى بترت ساقه أسمع نبض قلبي هناك ، أراه والأنوار ما زالت تحيط به يطرب فرحا ويشدو مزغردا ، أسمع في نبضاته ألحانا لم يسبق لها فنان ، يأبى الرجوع بين أضلعي ، وكأن المكان الذي آوئته فيه قد ضاق عليه .

فررت من كل شيء فرار الطائر إلى عشه الدافئ بعد طول غياب ، والحنين يأخذه إلى أنثاه ، يستمتع بتغريداتها ، يشم عطر التراب المبلل ، ونسائم العشي ، فيغفو وآخر منظره الغروب الساحر .

استلقت على سريري ونظري قد اخترق كل الحواجز، أرى ما وراء
 الستائر، من بيتي أنظر القمر، والشمس والنجوم المتلألئة والبحار
 والغابات، أسمع حديثها وآهاتها، لم يعد يزعجني ضجيج المارة، ولا نهيق
 الحمير، ولا نشاز العاذل، أرقد بسلام ولا شيء يعنيني، أحلم في يقظتي بغد
 ألقاه فيه، فتتلاءم أرواحنا محلقة إلى ذلك العالم المخفي، مرحبة تلك
 الشهب بنا، مهدية أكاليل زهور وتيجان الخلود.

مغالطة الحب

عدت بعد ذلك إلى سجنى الكبير، نلت حريتي المقيدة كعصفور يغرد في قفصه الحديدي، تجولت بين الناس فلم أجد فيهم غير الثثرة، والبسمة الخادعة تلو محياهم، لا يعرفون قيمة السعادة الحقيقية التي تكمن في دواخلهم، نعم لا أنكر عليهم الفرحه والبهجة التي ينعمون فيها، ولو أني لا أراها ما أحتاج.

كنت أبحث بينهم عن من يسمعي بدون تهكم، أحكي له ما يجول في خاطر وما يئن له الوجدان، ولكن من بينهم يقدر قيمة الحب، فالكثير الكثير منهم لا يؤمنون به، وإن آمن بعضهم فإيمانهم لا يرقى إلى المكانة العظيمة التي يمثلها في حياة الإنسان.

أغلب من يحكى له عن هيام العاشقين وفنائهم في سبيل المحبوب، يخرجون صيحات الاستخفاف والاستنكار، ناعتين العشاق بالمجانين وما

علموا مدى طهرونقاء من أفنوا حياتهم في العشق ، حتى إذا سألت
أحدهم هل أحببت يوما أجابك حب الله يكفيني ، ضاربا عرض الحائط
المحبة التي زرعها الله بين العباد ،
إن من كبائر الإثم الاعتقاد هكذا ، والذي هو أكبر أن نودع ذلك العالم
السامي معتقدين هذا الاعتقاد الواهم ، حب الله مراتبه لا نرتقي فيها ولا
يمكن أن نقتنع أن قولها باللسان دون تقديم برهان تتحقق ، وإن جزمنا
بهذا فعلا فلا يصح أن نتبع مثل هذه الآراء دون محبة حقة له تعالى ،
عملا وعبادة وخضوعا .

لا أدري من أين للناس بهذا ، وفي أي شرع ، ألم يكن النبي صلى الله عليه
وسلم يحب زوجاته وصحابته والناس أجمعين ، أليس هو قدوتنا !
وهل يحب أحد الله مثله عليه السلام ، عجبني من قوم لما قفلت قلوبهم
عن الحب أنكروه ولما بعدت قلوبهم عنه ردوه ، جاعلين قولهم حب الله

ذريعة يختفون وراءها.

إن حب الله لا يقارن بحب غيره، وهنا لا بد أن نفرق بين حب وحب، حب

الله الذي لا ينازع ولا يزاحم حبه غيره من شركاء، إله معبود لا يعبد

سواه، وحب النبي الرحمة المهداة، حب الأمة لنبينا الكريم، وحب الزوج

لزوجته، والولد لوالديه.

وما خلصت له أن الحب ظلم وظلم أهله، الناس في واد والعشاق في واد

آخر يهيمون .

ولا يعرف حقيقة الحب إلا القليل القليل.

عدت من جولتي بعد غروب الشمس ولم يكن هي إلا أن ألقاها الليلة،

في عالمنا السامي، لأخرج من سجني إلى حرיתי .

السكرة الثانية

يا أنا ، اشتقت للقياك ، يا أنا نسيت من أنا ، هواك تملكني وتهت في بحار
 عينيك الكحلية ، أترين البحر أمامنا ، نراه بلا حد لأن الأعين ذاك مبلغها ،
 أما القلوب فترى منتهاه ، تغوص في أعماقه فتبصر الأنوار ، تتألم لأكل
 القرش الغدار السمكة الرقيقة ، تهفو شوقا للغوص هناك ، لتجلس على
 العرش مسيطرة عليه ، تلمس كل متوحش فتحول غلظته لرقة ، تزرع
 الحب بين أهل ذاك الوجود .

أسمعتني يا حلوتي ، أوعيت ما قصدت ، معك لا أدري من أنا ، إلا أني
 أشاهد الجمال فأصمت ، تسكن ذاتي لتطير روجي تعانق روحك ، تجمد
 حركتي ونتيه هناك في عالمنا ، عالم المحبة الصافية ، نغوص نطير نسبح
 نرقص نتكلم كل ذلك في صمت .

أشرقت أساريها ، ونظرت إلى البحر ، وقالت أغمض عينيك ، ألا تسمع

أمواج البحر تتراقص فرحا بقدمونا ، ألا تسمع أناشيد حورياته ، وإيقاعات
 أسماكه ، اسمع نشاز القروش بدأ يتلاشى ، ليصبح منسجما ونغم البحر .
 ما قلت صدق ولا كذب فيه ولا خيال ، كل ما في الطبيعة ، يقتبس ما
 تجود به البشرية عليهم ، يتعلمون منا نحن ، إن كانت المحبة أقوى من
 البغض فالأقوى يسيطر .

اسمع لصوت العصافير فوقنا ، وتأمل هل هذا مكانها ، أين النوارس التي
 تنقض على الأسماك ؟ ، وأين صنارة الصياد؟ الكل رفع بقدمونا ، الكل فر
 من صفاء نفوسنا ، هي المحبة كالماء تطفئ النار ، هو الصدق ينير بالزيت
 النار .

كان الليل وقتها ولم نحس بالظلام ، البدر يرافق سمرنا ، وكأن الأكوان كلها
 تسمع لكلامنا ، تأنس بحضرتنا ، تتشوق لموعد لقائنا ، لا أعلم لم الليل هو
 الموعد دائما ، لأن سكونه يتوافق ومهجنا وأحاسيسنا ، أم هو الهرب من

الأعين الحاقدة الحاسدة ، سألتها ونحن في عز الارتقاء المؤدي إلى حيث
نرحل ، إلى شق القمر الدافئ ، أما تخافين أن يشي بنا الليل إلى العاذلين
الغافلين؟

تبسم لابتسامتها القمر ، وتحركت أمواج البحر تحتنا وكأنني بها تقهقه ،
وقالت بصوت صاف نقي ، لا ارتباك فيه ولا كذب ، لم أهتم في يوم لما
تسميه لوم العذال ، ولن يزعزع في شيئاً ، ولن ينقص ذرة مما أومن به ، هي
كلمات لا تجد في خاطري مستقر ، أعجب لم يخاف المحب الناس ، الأولى
أن يقابلهم بشجاعة وحزم ، فالمحروم العاذل لا المحب ، ولا يستطيع
الحب غير القلب الصادق النقي ، ولا يراه حمقا إلا القلب المغلف بالأحقاد
الذي لفته غشاوات تحول دون نفوذ الأنوار .

ها نحن قد بلغنا القمر ، ولولا المحبة ما استطعت التحرك من مكانك ،
تحررنا من كل القيود الجاثمة على صدورنا ، رأينا ما لا يرى وقلنا درجات

على ، يا أنا ما لنا والناس ، دعنا من هذا النكد ، وارقد هنا فلن ترى
الأحلام ، كل ما هنا رؤى تبدت بعد طول مجاهدة وهيام .
حركت رأسي بموافقة ما قالت وكياني سرى فيه السرور ، قوتك تذيبني ،
المرأة العربية تعاني الويلات من كلام الناس ، يبيحون كل شيء للرجال ،
قد يزني الرجل ولا يلقبونه بالزاني ، ويصاحب الفتيات لكن مجتمعنا لا
ينتقد أفعاله ولا يعيره ، أما المرأة ويل لها إن نطقت بالحب ، ويل لها إن
عشقت بجنون ووقفت أمام الكل تعترف بذلك تلسعها سياط الألسن ،
وتنبذها الخلائق ، أنت لا تنتمين لهذا العالم ، أنت أقوى من كل النساء ، و
أنا لا يهمني أحد ، صرخت بعدها اشهد يا كون عن حبي لها ،
لا حياة لمن لم يحب ..

لم أحس بعدها حتى وضعت رأسي على كتفها ، وآخر ما رأيت ابتسامتها
والقمر ، وآخر ما سلك في أذني زغاريد عمت الأرجاء والفرحة وجدتها قد

غطتنا بلحاف وردي عطر، تقاسمناه كأن الراقد جسد واحد لا جسدين ،
قلب واحد ينبض في ارتياح.

و...العدال

لا ينجلي ضيق النفس البشرية إلا إن وجدت الروح ملاذها الآمن ،
 وحضنها الدافئ ، يظل في فرح مصطنع تغلب عليه شهوات الجسد الفاني ،
 لذلك ينكر الناس على من يحيا حياة سامية روحية حديثه الغامض
 عندهم ، صحيح أن ما لا نلمسه في حياتنا يبقى مجرد أوهام عند الماديين ،
 غير أن ما يعاب عليهم إنكار ذلك جملة وتفصيلا ، محاولين إقناع غيرهم
 أن من يتحدث عن عالم الروح السامي مجنون لا يؤخذ عنه ، أولئك
 كالأرض البور مهما يجد عليهم الغمام بغيثه فلن ينبت فيها زرع ، ولن
 يفوح منها عطر الورود الزكي ، لذلك دعهم وودع طريقهم ، وإياك أن
 تخبرهم بما تحياه وتحسه ، فلن يزيدوك غير التبئيس والسخرية التي
 ستدميك أكثر .

فكم عانيت معهم في صمت ، وكم آلمني ذلك في بادئ الأمر ، رأيت وجوههم
 ضاحكة كلما رأت حالتي ، سمعت أفواههم تهمس في آذان بعضهم
 البعض ، ذاك المجنون ، تشمئز نفوسهم مني تارة ، وتسخر تارة أخرى ، لا
 أنكر أن ذلك أثر في بداية ، لكني الآن على استعداد أن أشكرهم واحدا

واحدا لما أسدوه لي من معروف ، جعلوني أعرف ذاتي وأقف على مدى قوتها ، نبشوا في ركام ذاتي المدفونة ليخرجوها من مقبرتها المخفية ، وأنا مستعد أن أنطق والفرحة تملو محياي لكل من بلغه ما حدث لي ، لأجيب بكل ثقة نعم ما علمت صحيح ، نعم قد فر الكلام مني وأنا بقربها فرار الريم من أنياب الليث الفراس ، نعم أحببتها كروحي التي ترفرف داخلي تارة وتهرب بعيدا عني تارات ، نعم أصابني سهم عينها السحرية فأرداني بين الغافلين قتيلًا ، كنت كالتائه الذي يهتدي بنور البدر ليصل إلى كوخه أعلى قمم الجبال الثلجية ، وكان رداءها الوردية يدثرني كلما ارتعدت من البرد ، شمسها تطلع لترسل أشعتها فتنفذ بداخلي لتحييني من رقدي ، نعم آلمني فراقها إيلام الفطام للرضيع ، وكيف لكم أن تحسوا بما أحس لتسمعوا نبض قلبي المترنح الهائم ، كمن ألقى إليه الملك وحيا جعله لا يدر في أي الأزمنة والأكوان هو .

فلا تكثرتاويلاتك المحدودة ، ولا تخريجاتك المعدودة ، وقوتك الحديدية التي منعت عنك الخير الكثير رغم مرارته الأولى .
فلا تلمني إن سمعتني أقول في الكون آيتين الشمس والقمر ، وثالثهما أنت ولا شيء بعدك يذكر ، ولا حين يشتد علي الحنين وتجتاحني في القلب

لوعة الفراق وناره أني سكران بلا خمر، ولا حين تتحد روجي وروحها في
جسد الحب، ويلتصق قلبي وقلبها ليصيرا قلبا واحدا ينبض بنبض ويحس
بإحساس واحد، لأناديها يا أنا ..

هو الحب لما يملك الإنسان لا يترك فيه شيئا إلا صار ملكا لمحبه
ومطلوبه، يترقى به إلى أن يصير متيما ولها، الكل يراه مجنونا، ويرى هو
الناس مساكين، لا من فقر في جيوبهم بل في أرواحهم.
فدعني في عالمي وحيدا أحيا، وهنيئا لك بدنياك المادية.

السكرة الثالثة

وأنا في طريقي إليها ، دق قلبي وارتعش ، سمعت منه حكاياته مع كل نبضة ،
 حكايات طويلة ومثيرة مع كل شهقاته ، أخبرني أن عالمه ليس كما أظن ،
 نفى عن نفسه أن يكون مجرد مضخة للدماء ، يوزعها على جسدي في
 شرايين وعروق لأحيا ، قال لي أن حياته أسى مما أعتقد ، أننا لا نستطيع
 أن نلمسها نحن البشر ، قد ينبض في وروحه مع سواه ، قد يحل في ذات
 أخرى ويسكن بي قلب سواه ، قوانينه الإحساس النبيل الذي يذيب كل
 الفوارق التي نضع .

كنت أستمع لما يحدثني به وروحي تهفو شوقا لذاك اللقاء ، لقاء أحبة ما
 سكنت ذاتي إلا بشم ريحهم ، بالجلوس تجاه قبلتهم ، بقلب خاشع وفكر
 تائه عن الكل إلا عنه ، لا تهمني بالردة يا معشر العذال ، ولا تقولوا هذا
 مخبول قد اختلط عليه الحق والباطل ، لأنكم لن تفهموا إلا إذا فهمتم

عما أتحدث ، ولن تعوا ما أقول حتى تلتوي شرايين قلوبكم فتفزعوا من
 ألم اللي ولوعة الحب ، ولا تطلبوا هذا البلاء فوالله ما علمت بلاء أشد
 منه ، وإن مررتم بديار العاشقين سيروا بأدب وتمتموا في دواخلكم السلام
 عليكم أهل الديار أنتم السابقون ونرجو من الله بكم ألا نلحق .
 طالت بي الطريق وما هي إلا خطوات ، أرى المسافة بعيدة من شوقي
 للوصول ، حتى تجلت أنوارها الذهبية وهي جالسة الأربعة ، ناظرة للسماء ،
 وحولها العصافير تغرد على إيقاعات روحها الزكية ، الأرض حولها ربيع ،
 والشمس فوقها كأنها لم تشرق إلا لها ، وصلت إليها وكأن روعي قد
 شقت جسدي أطراف متناثرة طارت في الهواء واختفت ، جلست
 كجلستها دون أن أنطق ، ورفعت رأسي للسماء كما فعلت ، فارتخي كياني
 وهدأ ، وسلمت أمري لما رأيت ،
 كانت الأكوان كلها في لحظة صمت ، وكأنها تراقبها ، تنتظر صوتها لتسعد

بنغماته ، وكنت كالأكوان وما في الوجود كله أنتظر مستمتعا بلحظة
الهدوء التي لم أشهد مثلها من قبل ، كنت في بعد لا يعرف الطريق إليه
أحد ، ولا يتبدى إلا لمن أحب بصدق ، وتاهت روحه ولها فكسرت القيود
وطارت للأعالي التي تنتهي إليها ، غادرت روجي الجب الذي أسكنتها فيه
وحلفت يميننا ألا تعود ، وكيف أريد للسجين الذي نال حرته أن يعود
لسجنه المظلم ، كيف وقد نالت حرثها التي فقدتها.
القلب ينبض فرحا والروح تهلل طربا ، وعشقي سابح ، وأنا وهي وكل ما في
الوجود صرنا في الحب واحد.

السكرة الرابعة

لن تتخلص إلا بشق الأنفس من سطوة التقاليد الجائرة التي تحيط
الروح بالأسوار العالية والتخاريف البالية، إن كنت مقلدا لما يفعله
الآخرون تنل المكانة المرموقة بينهم، وإن خالفهم فانتظر السياط الجالدة
والألسن الحادة.

الناس لا يستسيغون الذي يخالفهم الرأي وينأى بعيدا عن قوانينهم
المتعارف عليها التي ورثوها أبا عن جد دون التحقق من منفعتها وجدواها،
لا يبحثون في دواخلهم عن الحقيقة المغيبة، لا يسمعون نداء أرواحهم
الطاهرة، لا يفكرون حتى بعقولهم التي وهبها الخالق لهم،
لا أريدك كهؤلاء، ترى المرأة خادمة لا حقوق لها،

لا تراها كالدابة تحمل أعباء الحياة وإن تعبت وأبدت ضجرها تنهال عليها
السياط من فاهم للدين يستدل بالحق ليدلس على الناس ويتدثر بغطاء

الدين ليمنع مخالفه الاقتراب.

ولا أريدك كمن يريد نزع لباس الحياء عنها ليفعل فيها ما يشاء ، يتاجر

بلحمها حتى إذا تعفن رماها للكلاب تلحس عظمها ،

إن المرأة مسكينة لأنها تعيش الآن بين متزمت يخنق روحها ، وخبيث

يدنس عفتها .

أريدك لباسي الذي يسترني ، وحجابي الذي يحفظ عقلي ، وأناقتي التي

أسير بها بين الخلائق فرحة مسرورة

أريدك قلبي الذي ينبض بين أضلعي ويهفو شوقاً لأن يلقاك .

أريدها بسمه نابعة من روعي لا ضحكة أخدعك بها وأخدع نفسي .

لا تخجل من حبك لأنني لك شئتُ أم أبيتُ ، ولأنك لي شئتَ أم أبيتَ ، فلا

تهتم بما يقول الناس ولا تخف من الاختلاف ، ثر على كل ذلك وسأنتظر

ما حييت ثورتك ، هي الدماء إن سرت في ذواتنا سنحيا بها ، وإن أسفكت

ستبعث بها من الأرض أرواحنا ، لنلتقي في وجودنا هناك ، حيث لا مكان
لمن لا يحب ، حيث طهر القلوب وصدقها جواز المرور.

السكرة الخامسة

على الجبال البيضاء الباردة توشحنا رداءنا الوردى . بين القمم تجولنا
ساعة السحر, لا صوت يسمع غير دقات قلب يخفق , وآذان تخشع ,
وأعين تلمع , ذات تذوب مع الثلج تنساب من الأعلى لتصب في نهر جار إلى
البحيرة التي لا تنضب , نقطة ماء صرنا لا تجف , نسقي بها الأرض
الخصبة لتزهر, نبل ريق العطشان فيروي جفاف قلبه قبل ذاته , نغازل
الرمال الذهبية فتتلاً فرحاً بنا وتسعد , نرتقي إلى السحب فنتساقط
غيثاً يسقي البلاد والعباد , سقيا تبهج الوجوه العابسة المصفرة , فتمتلئ
الدنيا سرورا وبهجة , ومن غير الماء في صفائه ونقاؤه وحياته يفعل كل
هذا ؟

- هذا ما أريد , أن نختلط أنا وأنت حتى لا يعرف الناس من أنا ومن أنت ,
لا يظهر اختلافنا ولا تنافرنا , نكون كالماء لا طعم له نتميز به , ولا لون له

لنختار قابليته للامتزاج ، ولا رائحة له فنتخير الذي توافق مع أذواقنا ، ولا شكل له نتحير أي الأشكال يليق به ،

أكون لك كالماء فيه كل الحياة ، وتكون لي كالماء إن انعدم انعدمت الحياة ،

تنساب ذراتك بداخلي فتجري في مجرى الدم ، يكون النبض واحد هو

الحكم ، والعقل واحد لا يستعلي ولا يندحر .

نكون روحا واحدة في ذاتين نمسك من عل خيوطهما .

أسمعت ذاتك ذاتي ؟

كن لي ماء الحياة أكن لك الحياة .

السكرة السادسة

وتحدثني عن الهوى في مهده ، عمن رعاه ومن أرضعه ومن فطمه ، قالت إن المحبة إذا رفعت أذنت للكون أن يطوى ، وأن تعود السماوات والأرضين رتقا بعدما فتقهما الخالق ، فهل تنتظر حياة بدون محبة ، وهل الله خلقنا على الفطرة البيضاء ، وعليها كلنا محب . تستطيعها إن انعدم إلا من أسكن عكسها في قلبه ، فالنفوس البشرية هي من حولت ما فطر عليه الإنسان ، لا خبث فينا ولا بغضاء في الأصل ، فكيف لروح من الله أن تدنس؟

لا والله هي نقية طاهرة ، إلا أننا أنشأنا بعدا آخر يفصلنا عن البعد الأصلي ، حملنا الحديد بمشقة وتعبنا حتى قطرناه لنجعل منه سدا منيعا يحول بيننا وبينها .

أنا لا أسمعك كلامي لأبهرك فتقول هذه امرأة مثقفة ، تدري عن مكنونات

الذات ما لا يدريه غيرها , أو تقول أنني تكشفت عن بصيرتي غشاوات
أسدلت على قلوب الناس , فأنا مثل أولئك الذين عاشوا وما علموا
حقيقة هذا الخلق , ولا نالوا المرتبة التي أرادها خالقهم ,
أنا أيضا تائهة في بعد التيه الدنيوي الذي ما علمت إلى الآن كيف
الخروج منه , متاهة أركض فيها بين أشجارها المزهرة , ومياهها العذبة ,
وخصب ما تجود به علي , كالحامل للشعلة يستنير بها في طريقه المظلم ,
ولا يعرف أي اتجاه سيسلك , تهب الرياح فيحني شعلته لكيلا تنطفئ ولا
يحم نفسه من برد يتغلغل في عظامه , حتى إذا بلي العظم رقد على جنبه
الأيمن بين رفات الأرض متوسدا التراب , لا نور الشعلة هداة لبر الأمان ولا
هو استنار , إن ما يفسد علينا الحياة تمسكنا بها , بذلنا للغالي والنفيس في
سبيلها , هيأنا وراءها على وجوهنا نبتغي رضاها , وما هي إلا كفحم مطلي
بلون كالذهب حتى إذا تشبتنا به وظننا أننا وصلنا إلى المبتغى , أمطرت

ليكشف لنا الماء عن سوادها , فنذهل وما تكفيننا كل دموع العين من
الحسرة , وماذا تفيد الحسرة ونحن تحت الأرض قد ردمت علينا طبقات
من التراب.

لم أسمع من فتاة من قبل مثلما قالت , بنات اليوم لم تعد تهتم إلا
بأشكالها , تمضي أوقاتها في البحث عن يسحره جمالها , فيفتن بها لتسمع
منه كلمات تزيد من قيمتها كأنثى , يتغنى بجمالها وقوامها وعينيها
المصطنعتين , لا قيمة عندهن لحسن الأخلاق ولا طيب التربية.
صمت طويلا وأنا أحدث نفسي أين مثل هذه المرأة في زماننا ؟
أين من تلعب دورها كامرأة يحتاجها الرجل بجانبه وتحتاجه هي ؟
تسمو حياتهما بعيدا عن الشكليات التي يظن الناس أنها هي معيار
التفاهم والانسجام الكل الآن يفتخر أن زوجته جميلة , بل ويريد لكل أن
يراها وهي معه , لتستمتع نفسه بتحديق الناس نحوه , وهم في الأصل

يعيشون الفراغ الروحي ، فما لهذا خلقت حواء لأدم ، وما هكذا كانت
 أمهات المؤمنين للنبي صلى الله عليه وسلم ، كن رضوان الله عليهم خير
 أزواج لخير زوج ، يبيتون الليالي الطوال والأيام وما في بيوتهن إلا التمر
 والماء ، فمن أين لكم بما تعتقدون أنه الحياة ، فلا المال ولا المنزل ولا
 السيارة بمعيارتين به الرجل ، ولا الجمال والقوام وحسن الطلة بمعيار
 العقلاء ينتقون به المرأة.

الرجل الحق هو من ينقب عن المرأة الفاضلة التي تكون له خير عون
 وسند ، عاقلة تطيب معها العشرة ، حكيمة ترويك مما ينقصك فتكون
 نصفك ، وتحن عليها وتعطف فتكون نصفها ، لتكونا واحدا لا ينتصف ،
 لتحوزا الدنيا وزينتها ، وتنال الآخرة وما فيها.

خطاب الروح

لما تنجلي الحجب عن القلب تصير إنسانا آخر، تتمكن المحبة من قلبك
 فترى كل ما في هذا الوجود حيا، تمر على الشجرة فتسمع رفرقة أوراقها
 نغما طروبا ينساب على روحك فيبهجها، تنظر للحجر الأصم فتتوسده
 لتنبض في أذنك ذراته المتحدة المتلاصقة التي تتمسك ببعضها لتقوي
 صلابته، تغمض عينيك لتستمتع بأموج البحر وهي تغازل الرمال الذهبية
 في تناغم وتصاف، ترى الشمس مشرقة تبتسم لكل من رآها وتهديه من
 أنوارها، ترى القمر يطل هلالا وكله شوق لليلة البدر ليعم نوره الظلام.
 هو أنت لما تتجلى الروح فيك وتنجلي غشاوتها .
 هو أنت لما تتمكن من القلوب فتخاطبك بما تحمل بصدق، فتحن للذي
 استبد به الكره وتعذر صاحبه، وتتآلف مع الطيب متفقا معه على
 محاربة الأحقاد .

هو أنت لما تذوب مع الكون فترى الجانب المشرق فيه ، وتتقلب ذاتك

وتتحد معه ، لتصبحا ذاتا واحدة لا تتجزأ ولا تفنى ..

فحياة الأرواح كتب لها الأبدية ، وحياة الأبدان ستفنى مع هذه الدنيا ،

ليعود حكم الروح السامية بسمو وعظم خالقها ، بمن منحها للخلائق لا

يهدأ لها بال إلا إن استقرت في قرارها ، ووجدت في موطنها مكانا بعيدا عن

الجب الذي دفنها فيه الإنسان .

هو نداؤها الدائم بالنصح الذي لا تمل ترسله للذوات البعيدة عن حياتها

الطاهرة النقية ، لتتدارك غيبها الماضي ، وتفصح في حاضرها ومستقبلها

المقدر لها.

السكرة التاسعة

لم نغادروا ولن نفعل ، ذاك كان عهدنا الذي عقدناه وألزمنا أنفسنا به ، بل
ألزمنا أنفسنا للتمسك به ، كنا لبعضنا كقارب النجاة الوحيد الذي
شاهدناه ولمسناه لتتأكد من وجوده فعلا ، بعيدا عن الوهم الذي يخدع ،
لم نسأم من لقاءاتنا المتوالية ، ولم نمل من بعضنا البعض ، كأننا في
ضيافة كريم سخي كلما زرناه أكرمنا وحملنا إلى المقامات العلية.
أخذت بيدي وطافت بي إلى دنيا غير مألوفة ، كأن تلك الدنيا في بعد خارج
نطاق الزمان والمكان ، نعد الدقائق بالأنفاس ، بالشهقات والزفرات ،
بالنظرات التي تجعلنا نهيم ولا ندر أين نحن ، وكأن أعمارنا تزيد ونبض
قلوبنا يصير أكثر حيوية ونشاط.

ننظر للأكوان من الأعلى فلا نرى إلا الأنوار ، كلها بهاء ونضارة وبسمة ، لا
أحقاد تزاحم أحاسيسنا وتسود عيشتنا ، قالت وعينيها تتلألأ فرحا : يا أنا ،

افرح فبفرحك أفرح ، محظوظة أنا بك ، نحن في زمان لا يعترف بالحب ،
 الحب وصل إلينا شيخا غرس فيه الناس سيوفهم وخناجرهم ورماحهم ،
 حاربوه بشتى الوسائل ، بذلوا وسعهم ليفنوه ، لكنه أقوى مما يظنون ،
 يكفيه نبض قلبين لتعود فيه الروح ، ولو شاخ جسمه فروحه أبدا لن
 تشيخ.

قلت : الأصل صار ميزة ، انقلبت الموازين كمن نراه الآن ملتزما فنشير له
 بالبنان ، كأنه الغريب لا نحن ، فصرنا نسأل عن الصلاة بهل تصلي ؟
 والأصل أن نقول ألا تصلي ؟ لأن الصلاة أصل وتركها هو العارض .
 وهذا نبي الرحمة عليه السلام في علاقته -التي لم ولن نجد لها مثيل-
 بزوجاته أمهات المؤمنين ، كما روت أمنا عائشة رضي الله عنها لما عقد
 حبلا وجعل فيه عقدا للدلالة على حبه لها ، فكانت تسأله هل العقدة
 على حالها فيجيب بلا زالت كما هي ، فأين نحن من ذلك ، وأين من يبوح

بما يكنه في صدره للآخر، إن ما يفسد ارتباطنا ببعضنا كتمنا لما يجب أن يظهر مفسحين المجال للأحقاد أن تطغى، لذلك أوصى النبي صلى الله عليه وسلم المسلم بأن يخبر من يحب بأنه يحبه، لكي ترتقي علاقاتنا وتسمو، لنبادل بعضنا البعض المحبة التي تذوب كل ما يكدر صفو حياتنا، فلا حياة طيبة هائلة بلا صفاء.

إن مجتمعاتنا لم تعد تقبل أن يقول الرجل للرجل أحبك، وحتى للمرأة، وللأخيرة نجد الأثر السلبي في عدم سماعها لهذه الكلمة التي تطرب روحها، تذيب ذاتها الرقيقة التي تقف بما يهمس من طيب الكلام في أذنها، ويسأل الناس أن المرأة قد تغيرت وتبدلت طبيعتها، لا والله فهي كما كانت ولو أظهرت العكس، ما زالت تلك اللحمة الطرية التي تتوافق ولامسها، إن كان عنيفا في لمسه لها فسدت، وإن كان رحيما بها انسابت وأين نحن من الرجال الشداد في رحمة، أتعلمين يوما قد حكيت وملمسه

لصديق لي عن قصة سيدنا عمر بن الخطاب مع زوجته ، حين أتاه رجل يريد أن يشتكي من زوجه ، فسمع زوجة الفاروق توبخه وعمر بن الخطاب جالس يسمع في صمت ، فهم الرجل بالرحيل ، فخرج الفاروق رضي الله عنه ليقول له ما حاجتك ، فقال : والله أتيتك لأشتكي سوء معاملة زوجتي لي ، فلما سمعت ما كان من زوجتك تراجعته ، ليرد عليه عمر : ألا نصبر عليها وهي من تهتم بنا وتشقى من أجل ذلك ، استوقفني صاحبي لما انتهيت وقال بعينين جاحظتين : مستحيل ، عمر يفعل هذا ! ، فقلت نعم ، ألا ترى في عمر غير الشدة ، نعم كان شديدا على الأعداء ، رحيفا على غيرهم .

قالت : أمتعتني وأطربتني ، كم كنت مشتاقة لسماع مثل هذا الكلام ، أجد الرجال فقراء يفتخرون بما في جيوبهم ، وقلوبهم خاوية ، نعم فالكثير من النساء تستهوينهم المادة ، ولست ممن يريد أن يكون عبدا لها ، يا أنا ، لا

تغب عني فلن أجد مثلك في روحه الزكية وعقله المستنير، وإن كنا في نظر
 الناس عارض فنحن نعلم أننا الأصل وهذا يكفيننا، لأنها حياتنا التي نريد
 أن نحياها، هي لنا ملكنا وسنموت من أجل ألا يسلبها منا أحد.
 لم ينطق لساننا بعد بكلمة، ولكن أرواحنا أكملت حديثها، نظرات مباركة
 تبادلناها وهمنا نرقص في مكاننا.

السكرة العاشرة

أعتقد أنت أيضا أني مجنون..

أرضها من الجميع إلا منك .. لأنك أقرب إلى فهم ما يحدث معي , وهل

يفهم ما حدث مع من كاد أن يفرق إلا ناج من الغرق مثله , نعم يراك

الجميع تخبط تخبط عشواء , ولكن من منهم أحس بالنفس لما لا يطاوع

صاحبه , لما تختنق روحه وكأنها ترقص رقصة الذبيح.

الكل يدعي أنه الأعقل , أنه الأذكي , أنه المثل الذي يحتذى به , حتى يظن

من الوهم الذي يعيشه أن سلوكه هو الأمثل , وأن آراءه هي الصحيحة

التي لا غبار عليها , قمة الأنانية وحب الذات فوتت على الكثيرين تناقح

التجارب , والاستفادة من الآخر.

وقد يعلمك الطفل أكثر ما يعلمك الرجل..

وقد يعلمك الحيوان أكثر من الإنسان..

وحتى الجماد ينطق , ولكن من يسمعه..

وكل مخلوقات الله تنفع , حتى الحية في سمها الترياق , ولكن من يفهم

ويستوعب كل هذا.

إن رأوا العاشق التي تهيم روحه , وينفر منه قلبه ليلاقي من يحب مجنوننا

فما عرفوا معنى ما يختلج في الحس , ولا ما ينزع في الفؤاد , ولا أجد بدا

من كثرة التفسير الغامض عندهم , فلست أول من لقب بالمجنون , سبقني

مجانين الهوى , وهم كثر , منهم من ظهرت أحوالهم , والمتخفون أكثر بكثير

من أن يعدوا.

لكنني أعذرهم , فلا يمكن لما يحس في الخواطر أن يترجم , وإن اجتهدنا في

إبدائه , لسان المقال قاصر , ولسان الحال مردود , وليس لنا في ما نجد إلا

الصبر على المصاب , والسند الوحيد الذي نستند إليه , وهو المحبوب , فإن

جفا وإن عدل كان كالحاسم للعرق دون كي.

أمجنون أنا لأنني أحببتك ، ما بال صوتك محبوس ، ونظرك تائه ، وعقلك شارد ، أحدثك بما لا تفهم ، أم أنك تتمادى في التجاهل ، أم أنك متمسك بقاعدة العزوالذل ، العزلك بكبريائك ، والذل لي بالتبعية لك .
 سهام قولك قد غرست في الحشا ، وتمكنت مني ، أشلاء من الداخل -
 صرت ولو أني قائمة بصلي ، تفتتت ذرات كياني مما سمعت ، اللعنة على ما قيدوا الأنثى به..

اللعنة على ظلم القواعد الجائرة في حقنا..

اللعنة على من جعلنا ننتظر الحب دون أن نبادر.

أليس من حقنا أن نعبر لمن نحب أننا نحبه ، ندوب كلما رأينا المحبوب

أمامنا ، وأرواحنا تشتاق له ، لكننا أرغمنا على الانتظار، حتى ضاعت

خوابنا ، وفسدت مشاعرنا.

ألم تدعني غير ما مرة لأن نشور على الجميع ، أتدفعين بي لساحة الوغى -

وتنسحبين لتتفرجي كيف تغرس السيوف غدرا في جسدي المنحول ، لم
 لم تثوري أيضا ، لم لم ترفعي رايتك الحمراء ، راية النصر أو الموت ،
 أخجلك أن يقول الناس فلان قد شغفها حبا ، وفي الأخير نقول ظلمنا
 الحب ، الحب لا يظلم أحدا ، له مقاييس دقيقة ، ومعايير مشددة ، إما أن
 نخوض غماره راضين بما سنه ، أو لندعه وشأنه .
 اعلمي أن الظروف لا تقهره ، ولا كثرة الحاقدين والحاسدين تثنيه عن
 مقصده ، إلا أنه لا يقوى إلا باثنين ، يشدان حبل ودادهما ببعض ، والريح
 وإن قويت لا تفك الحبل إن كان مفتولا .

سأثور ، لأنك حياتي التي لم أعش بعد ، وسألتقي بالكل واحد واحدا ، -
 لأصرخ في وجهه بابتسامة عريضة ، هو حبيبي ، لن أداري ما أحس ، ولن
 أذكرك بسوء محبة في ذكرك واختباء لكي لا تعرف النسوة أنني أحبك

أما الآن فدعني يا مجنون ، يا من يمتعني جنونك أستمع لضجيج عقلي ،
ونبض قلبي ، كفاني كلاما ، كفى .

صحة

أيها الراقد في قمم الجبال سلام عليك ..

أيها المتوسد للحجر قرب النهر الجاف سلام عليك ..

أيها المستظل بظل شجرة النار سلام عليك ..

أيها الساهر وسط النيام سلام عليك ..

سلام على كل من سلب قلبه ، وهام في أرجاء الدنيا يبحث عن موطنه ،

لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار إلا إذا اكتمل بدره ، وسطعت شمسه ،

وتدفق الماء من وسط الجبال ، وغنت العصافير وحامت حوله .

أنت لست من هنا ،

أنت منبوذ لا مكان لك في مجتمعنا ،

أنت أحمق ، لا عقل لك .. لا علم لك .. ضعيف الذات ..

يشار إليك بالبنان ، وتصيح الأفواه بالقهقهات المدوية كلما رأتك ..

لا تبتئس ، سيعلمون ولو بعد حين أنهم كانوا أغبياء ..

وسيقبلون رأسك كلما رأوك .. ليعرفوا أنهم ظلموك ، وأنهم أضاعوا سنين

عمرهم في الحساب المادي ، وأن الحياة أكبر من أن تكون مادة.

لم لا تعلمهم قبل أن يفوت الآوان ، لم لا تخبرهم بالسر الذي كتمته

عنهم ، لم لم تنادهم بالمجانين كما نعتوك بها .. أم أن صمتك كلام ،

وحالك حكمة لا يفهمها إلا اللبيب ،

ولكن ليس كل الناس نهاء ليفهموك ، ليعوا ما تقول دون أن تنطق

شفاهك ..

ستدعهم يأولون التأويلات الخاطئة .. سوف تسأم منهم لتهرب .. وإن هربت فلن تجد من يفهمك .. لتلتجئ إلى الطبيعة الحاضنة لك ولأمثالك ،

سيسمعك البحر ولكنه لن يكلمك ..

سيدفن سرك في أعماقه دون أن يجيبك ..

ستبكي السماء لما تسمع أنينك ولكنها لن تكلمك ..

سيغضب الرعد لك ..

وستتعبد الدواب التي تحملك ، وأيضا لن تكلمك ..

سيسمعك الجميع ولكن لن تسمع أحدا ..

الوحيد الذي ستسمعه ما تنفث ألسن الانام من سم سيسري في

جسدك ، وستصبر لأن الصبر صار رفيقك في وحدتك ، حتى المحبوب لا

يعلم ما بك حقيقة ، لتكون تسليتك ما يتجلى في ذهنك قبل موتك .

وستغيب مع الفجر الحياة ، وسيسلم القمر الشمس المشعل ، ليبدأ من

جديد موتك ،

أيها العاشق سلام عليك ..

سلام صادق مني إليك ..